رحلات صلاح الدين العلمية إلى مدينة الإسكندرية

دكتور/ مصطفى علي دويدار

لا شك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب، واحد من أبرز رموز العرب والمسلمين فى توحيد الأمة ورفع راية الجهاد ضد قوى الشر الغازية، التى إجتاحت العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، فقد كان ظهوره فى الحروب الصليبية يمثل طوق النجاة لهذه الأمة، ولذلك احتل مكانة مرموقة بين قادة المسلمين وأعلامهم، وصار مثلا يحتذى فى كل عصر، فقد حمل رسالة آمن بها، وبذل فى سبيلها كل غال وثمين، بل ضحى من أجلها بالأهل والولد، وسلك طريقاً مستقيماً اتصف بالخلق القويم والاستقامة الشريفة، حتى حظى بإعجاب معاصريه جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها، فشهد له أعداؤه وخصومه، قبل أصدقائه وأنصاره، حتى أن أهل فرنسا وإنجلترا عرفوا ضريبة العشور التى فرضها "فليب أغسطس" ملك فرنسا و"ريتشارد قلب الأسد" ملك إنجلترا، فى القرن الثانى عشر الميلادى، أطلق عليها اسم "ضريبة صلاح الدين"، بمعنى جمع الأموال من الغرب لمحاربة صلاح الدين فى الشرق(١).

ولاريب أن ذلك كان نتيجة للانتصارات العديدة التى حققها فى بلاد الشام، حيث تمكن من الاستيلاء على معظم معاقل الصليبين، فأسقط المدينة تلو الأخرى، والحصن تلو الآخر، حتى تمكن من تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م، الأمر الذى جعله يرتبط فى أذهان الأمة بأنه حامل راية الجهاد والمحرض عليه، فمثل صورة البطل القومى الذى تباهى به المسلمون فى شتى بقاع الأرض.

وقد يظنّ الكثير من الناس أن صلاح الدين شغلته أعمال الجهاد عن الإنصراف إلى شئون الدولة الأخرى، وخاصة الثقافية والحضارية، ولعلّ صورة الفارس المحارب صلاح الدين قد طغت على الجوانب الأخرى من شخصيته، فأخفت بعضًا من ملامحها المشرقة، وقسماتها الزاهية، إلا أن حياة الرجل امتلأت بالعديد من الجوانب المضيئة،

(١) سعيد عاشور: الناصر صلاح الدين، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٤؛ فايد عاشور: الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢١٤.

فهو رجل السلام الذى قدم إلى عدوه الملك الإنجليزى "ريتشارد قلب الأسد" كل ما كان يحتاج إليه فى مرضه من دواء وفاكهه وثلج، وهو الذى عقد صلح الرملة مع الصليبيين حقناً لدماء المسلمين والصليبيين، وهو الرجل المتدين الملتزم بتعاليم دينه، "حسن العقيدة، كثير لذكر الله تعالى، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه، يقول فيه قولا حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء ..."[١]. وكان حريصاً على صلاة الجماعة، "محافظاً على الصلاوات الخمس فى أوائل أوقاتها، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما... صلى إلا فى جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة وكان له إمام راتب، ملازم مواظب. فإن غاب يوماً صلى من حضر من أهل العلم، إذا عرفه متقيا متجنبا للإثم"[٢].

ويذكر ابن شداد أن السلطان صلاح الدين كان له سنين ما صلى إلا جماعة، وإنه إذا مرض، كان يستدعى الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة. كما كان يواظب على السنن الرواتب وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ فى الليل، ولم يكن يترك الصلاة مادام ذهنه حاضرا ولم يتغيب عقله بسبب المرض، ولقد رآه القاضي ابن شداد "يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائماً وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه٠ وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى"[٣].

حبه للعلم والعلماء:

كان السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي محباً للعلم حريصاً على مجالسة العلماء، وفى ذلك يقول العماد الكاتب الأصفهانى: "وكانت محاضره مصونة من الخطر، وخلواته مقدسة بالطهر، ومجالسه منزهة من الهزء والهزل ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة تسخط"؛ كما كان "يؤثر الحديث

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبى، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٨.

(٢) العماد الأصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ، ٢٠٠٣م، ص٦٦.

(٣) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبى، ص٨.

بالأسانيد، وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة فى القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المرضية، والأدلة المرعية"[١]. وقد اتصف بأنه شديد الرغبة فى سماع الحديث وتعلمه، "ومتى سمع من شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فإنه إن كان ممن يحضر عنده، استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه وسمع عليه" [٢]. وكثيرا ما كان يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم، ويستمع إليهم، ويشاركهم في أبحاثهم، كما كان يشارك بنفسه في تشييع جنائزهم[٣].

ومنذ أن دخل صلاح الدين مصر فى صحبة عمه أسد الدين شيركوه حرص على الالتقاء بعلمائها، "وزيارة مراكزها العلمية ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة فى المسائل الفقهية، والمعانى الأدبية"[٤] وكانت مدينة الإسكندرية تمثل مركزاً علمياً وحضارياً هاماً منذ نشأتها، وذلك بحكم موقعها، كميناء بحرى يربط بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه، بل معبراً لالتقاء الغرب الأوربى بالشرق الإسلامى، فكانت ملتقى العلماء من كل حدب وصوب، وترجع علاقة السلطان صلاح الدين الأيوبي بمدينة الإسكندرية إلى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م، عندما دخلها لأول مرة عندما "سَار أَسد الدّين إِلَى ثغر الْإِسْكَنْدَرِيَّة وجبى مَا فِي طريقها من القرايا والسواد من الْأَمْوَال وَوصل إِلَى

(١) العماد الأصفهانى: الفتح القسى، ص٦٥٦.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبى، ص ٩-١٠؛ ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٤م، ص٤٣٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج ٦، طبعة دار الكتب المصرية، ص٩.

(٣) عفاف سيد محمد صبرة: المدارس في العصر الأيوبي، بحث في كتاب المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٢، ص١٤٩.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٦٨٥.

الْإِسْكَنْدَرِيَّة فتسلمها من غير قتال، سلمهَا أَهلهَا إِلَيْهِ، فاستناب بهَا صَلَاح الدّين ابْن أَخِيه وَعَاد إِلَى الصَّعِيد"(١).

كما كانت الإسكندرية أول المدن المصرية التي قطعت الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد، وبادرت بالخطبة والدعاء للخليفة المستنجد بالله العباسي، فسبقت مدينتي الفسطاط والقاهرة في ذلك(٢)، الأمر الذي يؤكد أن أهلها كانوا متمسكين بالمذهب السني ولم يسمحوا بفتح باب التشيع فعصفت أمواجها بسفينة الخلافة الفاطمية، فتحطمت على شواطئها. وقد حاول أحد دعاة الشيعة ويدعى قديد القفاجي معاودة الدعوة للفاطميين بها، فبادر أهل الإسكندرية بالتصدي لدعوته، حتى تم القبض عليه وقتله(٣).

وقد حفظ صلاح الدين لأهل الإسكندرية جميلهم وحسن استقبالهم له وصبرهم على الحصار الذي فرضه عليهم الصليبيون، فلما ملك مصر أحسن إليهم(٤). كما حرص على أن يلتقى علماء الإسكندرية متى سمحت له الظروف، حتى أنه كلما عاد من الشام إلى مصر بعد جولة من الجهاد ضد الصليبيين، توجه إلى مدينة الإسكندرية؛ فيُذكر أنه زارها أربع مرات فى سنوات: (٥٦٦هـ /١١٧١م)، (٥٦٧هـ/ ١١٧٢م) ، (٥٧٢هـ/١١٧٦م) ، ٥٧٧ه/١١٨١م)ـ . وذلك على النحو التالي:

الرحلة الأولى سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م:

كانت هذه الرحلة تهدف إلى **زيادة** تحصين مدينة الإسكندرية، فَسَار إِلَيها "فِي الثَّالث وَالْعِشْرين من شعْبَان ليشاهدها ويرتب قواعدها وَهِي أول دفْعَة سَار إِلَيْهَا فِي أَيَّام سُلْطَانه وَعم أَهلهَا بإحسانه وَأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها"(٥). والمقصود بأيام سلطانه هنا أيام وزارته للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين في مصر.

(١) أبو شامة: الروضتين، ج١، ق٢، ص١٣؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٢٩.

(٢) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٥٠٤؛ ابن العبري: مختصر الدول، ص٣٧٣-٣٧٤.

(٣) أبوشامة: الروضتين، ج٢، ص٥٦٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٥٠ ؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٩٦.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٣٤٩.

(٥) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص١٨٢.

الرحلة الثانية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م:

من الواضح أن هذه الرحلة كانت استكمالا للرحلة السابقة، فقد أولى الإسكندرية خلالها عنايته، واختصها برعايته: فمن عمارة لأسوارها، وتمكين لدفاعها البرى والبحرى، إلى تعمير لأسطولها وتقويته ودعمه ومشاركةٍ فى أعمال الإنشاء والبناء، ورعايةٍ لأولى العلم والتقوى من أهلها(١).

ولاشك أن سياسة السلطان صلاح الدين الأيوبي كانت تهدف دائما إلى تقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام، وقد صدرت المراسيم السلطانية التي تقتضي تنفيذ هذه التحصينات وغيرها لضمان حفظ السواحل أمام اعتداءات الصليبيين على وجه الخصوص(٢).

وإذا كانت هاتان الرحلات بهدف التعمير والإنشاء، وأنهما كانتا فى إطار تثبيت الحكم، وتأمين الدولة، فإنه لم يرد ما يفيد أنه التقى بعالم من علمائها المشهورين، اللهم ما قيل من أنه في رحلته الثانية أولى أولي العلم والتقوى من أهلها رعاية، فإن الرحلتين الأخيرتين فى سنتى ٥٧٢هـ /١١٧٦م، ٥٧٧هـ /١١٨١م، تعتبران من أهم الرحلات العلمية التى قام بها السلطان صلاح الدين.

الرحلة الثالثة سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م:

جاءت زيارة السلطان الناصر صلاح الدين الثالثة لمدينة الإسكندرية سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، بمثابة أولى رحلاته العلمية إليها، بشكل مباشر، وقد أصطحب معه ولديه الأفضل على والعزيز عثمان، وكذلك العماد الأصفهاني الذى نقل عنه أبو شامة أخبار هذه الرحلة بشيء من التفصيل، ومن الواضح أنهم كانوا يستريحون في بعض

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٢٣٣؛ آمال رمضان عبد الحميد صديق: الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص٢٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص٢٢٣، ج٨، ص٦١؛ أحمد مختار العبادي: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، بحث في كتاب (تاريخ البحرية المصرية) اصدارات جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣م، ص٥٧٦.

المدن والقرى أثناء مسيرهم إلى الإسكندرية، فيقول العماد: "وَقد نزلنَا بَين منية غمر ومنية سمنود

نزلت بِأَرْض المنيتين ومنيتي لقاؤكم الشافي ووصلكم المجدي

سأبلى وَلَا تبلى سريرة ودكم وتؤنسني إِن مت فِي وَحْشَة اللَّحْد"(١)

ويستطرد العماد الأصفهاني في ذكر جوانب من هذه الرحلة العلمية قائلا: "ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى، وداومنا الحضور عنده، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده وسمعنا عليه ثلاثة أيام: الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا الزمان، وتلك الأيام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر، فهى آخر ما اجتمعنا به فى ذلك الثغر"(٢).

ويبدو أن مقامهم بالإسكندرية استغرق أكثر من أسبوعين، حيث خرجوا من القاهرة يوم الأربعاء يوم ٢٢ شعبان عن طريق ثغر دمياط، فأقاموا به يومين، فوصلوا ثغر الإسكندرية فى أوائل شهر رمضان. ويذكر كل من أبي شامة وابن واصل أن صلاح الدين كان يتردد إلى الشيخ الحافظ السلفى " فى كل جمعة ثلاثة أيام هى: الخميس والجمعة والسبت"(٣). أى أنه تردد عليه فى أكثر من أسبوع ، وربما كان ذلك فى أسبوعين أو ثلاث، بحيث غادرها فى العشر الأخيرة من شهر رمضان، وعاد إلى القاهرة، وصام بها بقية شهر رمضان، وداوم على "سماع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشَّرْع وإظهاره، وإبقاء الْمَعْرُوف على قراره وإعدام الْبَاطِل وإنكاره"(٤). وفي هذا ما يؤكد على حرص السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي على المداومة والمتابعة لمجالس العلم سواء أكان ذلك في الإسكندرية أم في مصر والقاهرة وسائر المدن التي زارها وأقام بها.

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٨٩؛ رجب عبد المنصف وآخرون: السلطان صلاح الدين، لمحات من حياته وصور من مآثره، سلسلة أعلام الإسلام، عدد ٥، ربيع الآخر ١٤٢٥هـ/ يونية ٢٠٠٤م، ص٦٢.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٥٦؛ المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٣٣.

(٤) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠.

وقد بات واضحاً فى هذه الرحلة أن صلاح الدين كان يحرص على أن يحضر ولديه الأفضل علي والعزيز عثمان مجلس الحافظ أبى طاهر السلفى، فيقول ابن كثير: "فأسمع ولديه الفاضل على، والعزيز عثمان على الحافظ السلفى، وتردد بهما إليه ثلاثة أيام، الخميس والجمعة والسبت، رابع رمضان"(١). ويؤكد ذلك ابن واصل بقوله: "إنما استصحب ولديه فى هذه السفرة ليسمعهما الحديث النبوى وتعمهما البركة"(٢). ولابد أن صلاح الدين كان يعرف هذا الشيخ، ومكانته وعلمه وفضله، ويحفظ له قدره، وذلك من خلال زيارته المتكررة لمدينة الإسكندرية وربما التقى به غير مرة فى الرحلتين السابقتين، فهو الشيخ الحافظ أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة الشافعى المذهب- وهو نفسه المذهب الذى كان يعتنقه صلاح الدين- الأصفهانى المولد، دخل بغداد وتتلمذ بها على كبار علمائها، وتنقل بين العديد من البلدان فى طلب الحديث حتى أصبح إماماً حافظاً، متقناً، انتهى إليه علو الإسناد، وروى عنه الحفاظ فى حياته، نزل ثغر الإسكندرية سنة ٥١١هـ/١١١٧م، وبنى له العادل أبو الحسن على بن السلار وزير الخليفة الظافر الفاطمى مدرسة وفوضها إليه، حتى عرفت به، فاشتهرت بالمدرسة السلفية، وقد ترك الكثير من المؤلفات ما بين الأمالى والكتب والتعاليق (ت:٥٧٦هـ/١١٨٠م)(٣). ويجب الإشارة هنا إلى أن لقب السلفي لايعني أنه ينتمي إلى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١٧.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص ٥٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م، ص٤٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٢٩ –٣٣٠؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة (د. ت)، ص٩٤؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٨٧؛ السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج١، تحقيق خليل منصور، بيروت، ١٩٩٧م، ص٣٠٢؛ جمال الدين الشيال: أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية، ع ١١، ١٩٥٧م، ص٣-٢١. تذكر المصادر في ترجمة العادل بن السلار (ت: ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) وزير الخليفة الظافر الفاطمي أنه "كان ظاهر التسنن، شافعي المذهب" فكان يمثل صورة من صور التغلغل السني في الإدارة الفاطمية، حيث صار واليا على الإسكندرية قبل أن يستوزره الظافر، وفي أثناء ولايته على الثغر، وصل الحافظ أبو طاهر السلفي، إلى الإسكندرية، وأقام بها، فاحتفى به العادل، وزاد في إكرامه، وعمر له مدرسة سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٦م، ولعله شرع في بنائها أثناء ولايته على الإسكندرية، وتم بنائها في السنة المذكورة، وفوض تدريسها إليه، وهي المدرسة الشافعية الوحيدة في الإسكندرية قي ذلك الوقت. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ج١،=

الجماعة المعروفة الآن بالسلفية وإنما كان ذلك لانتهاء نسبه إلى جده لأبيه ابراهيم سلفة.

وعلى الرغم من أن هذه الرحلة كانت خالصة للعلم ولقاء العلماء، إلا أن حب السلطان للجهاد، كان يدفعه دائما للوقوف على أحوال المدينة، وحصونها وأسوارها، ومعاينة ما ألم بإسطولها، وعمارة سفنه، والوقوف على درجة استعداداته الحربية، فتفقد سورها الدائر، وفحص الزيادات، التي كان قد أمر بإنشائها في زياراته السابقة؛ كما تفقد الأسطول وأمر بعمارته، وتجديد سفنه، ولم يغادر الثغر حتى أمر بإتمامه وتعمير الأسطول[1]، فقَالَ ابْن أبي طيّ: "وَلما نوى السُّلطان الْمقَام بالإسكندرية ليصوم فِيهَا رأى انه لَا يخلي نَفسه من ثَوَاب يقوم لَهُ مقَام الْقَصْد إِلَى بِلَاد الْكفَّار وَالْجهَاد فِي الْمُشْركين فَرَأى الأسطول وَقد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته، فَأمر بتعمير الأسطول، وَجمع لَهُ من الأخشاب والصَّنَاع أَشْيَاء كَثِيرَة، وَلما تمَّ عملُ المراكب أَمر بِحمْل الآلآت، فَنقل من السِّلَاح وَالْعدَد مَا يحْتَاج الأسطول إِلَيْهِ وشحنه بالرِّجَال وولىّ فِيهِ أحد أَصْحَابه وأفرد لَهُ إقطاعا مَخْصُوصًا وديوانا مُنْفَردا وَكتب إِلَى سَائِر الْبِلَاد المصرية بِقبُول قَول صَاحب الأسطول وَأَن لَا يمْنَع من أَخذ رِجَاله وَمَا يحْتَاج إِلَيْهِ وَأمر صَاحب الأسطول أَن لَا يبارح الْبَحْر ويغزي إِلَى جزائر الْبَحْر"[2].

=ط١، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، ص ، ج٣، ص٤١٦-٤١٧؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، ط٢، القاهرة ١٤١٣هـ، ص٣٢-٣٧؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٧، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١١٥-١١٦؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج٣، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة أحياء التراث الإسلامى، القاهرة (١٣٩٣هـ /١٩٧٣م)، ص١٩٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، بحث في كتاب المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٢، ص٢٤؛ أيمن فؤاد سيد أحمد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث في كتاب المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص١١٩.

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق٢، ص٦٩٠؛ أحمد مختار العبادي: البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، ص٥٧٧؛ سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية،، بيروت، (د.ت)، ص٤٧.

وهكذا، فإن هذه الرحلة، حملت العديد من المعان السامية، حيث بدى السلطان في صورة مخالفة لما اشتهر عنه، بعد أن اتضح حرصه الشديد على العلم وحضور مجالس العلماء، وإشباع روحه الظامئة إلى المعرفة بالعلوم الشرعية التي طالما أضفت عليه سكينة ووقار، وملأت قلبه بالأمن والطمأنينة والسلام، واستعاد بالعلم، روح النقاء التي تدفعه إلى خوض غمار معاركه السياسية والحربية، لينطلق إلى آفاق توحيد الجبهة الإسلامية، استعدادا لمعركته الكبرى مع أعداء أمته، الذين اجتاحوا بلاد المسلمين، واستباحوا حرمة مقدساتهم، ولم يراعوا في ذلك

الرحلة الرابعة سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م :

أما الرحلة العلمية الثانية، وهى الزيارة الرابعة والأخيرة التى قام بها صلاح الدين إلى الإسكندرية، فقد جاءت عقب وفاة الحافظ السلفى، حيث خرج السلطان من القاهرة فى ١٧ شوال سنة ٥٧٧هـ ، قاصداً الإسكندرية، فدخلها فى ٢٥ شوال، وشرع فى قراءة موطأ مالك يوم الخميس ثانى يوم من دخول المدينة على الفقيه أبى الطاهر بن عوف[١]. ولعل تأثره بوفاة الحافظ السلفى جعله يسرع بلقاء أبى الطاهر بن عوف قائلا: "نغتنم حياة الشيخ أبى طاهر" [٢]، ومن الواضح أن هذه الرحلة كان هدفها الأول هو تفقد ما تم انجازه من تحصينات لمدينة الإسكندرية، حيث تفقد أسوار المدينة، وطالب القائمين عليها، ثم أتم رحلته، بطلب العلم على الشيخ أبي طاهر بن عوف؛ فقد أورد المؤرخون هذه الرحلة بشيء من التفصيل، نقلا عن العماد الأصفهاني الذي صحب السلطان فيها أيضا، فأشاروا إلى أن صلاح الدين خرج لزيارة الإسكندرية فى هذه السنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، عن طريق البحيرة، "فخيم عند السوارى وشاهد الأسوار التى جددها، وأمر بالإتمام والاهتمام، وقال: نغتنم حياة الشيخ أبى طاهر بن عوف فحضر عنده وسمع عليه موطأ مالك بن أنس – رحمه الله تعالى – بروايته عن الطرطوشى، فى العشر الأخير من شوال، وتم له ولأولاده السماع"[٣].

---

(١) ابن كثير:البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٠؛ المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص٩٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص١١٢؛ أحمد بن إبراهيم الحنبلى: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، تحقيق مديحه الشرقاوى، القاهرة، ١٩٩٦م، ص١١٩؛ رجب عبد المنصف وآخرون: السلطان صلاح الدين، ص٦٣.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق١، ص٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص١١٢.

ويقول العماد الأصفهاني الذي حضر مع السلطان وأولاده دروس ابن عوف: إنه وجد كتابا للقاضي الفاضل إِلَى السُّلْطَان يهنئه فيه بِهَذَا السماع، وقد افتتحها بالدعاء لـه وخلع عليه ألقابا جليلة مشيرا إلى إحيائه للخلافة العباسية بسقوط الدولة الفاطمية بقولـه: "أدام الله دولة الْمولى الْملك النَّاصِر صَلَاح الدُّنْيَا وَالدّين سُلْطَان الْإِسْلَام وَالْمُسْلمين محيي دولة أَمِير الْمُؤمنِينَ، وأسعده برحلته للْعلم وأثابه عَلَيْهَا وأوصل ذخائر الْخَيْر إِلَيْهِ وأوصله إِلَيْهَا وأوزع الْخلق شكرا لنعمته فِيهِ فَإِنَّهَا نعْمَة لَا يُوصل إِلَى شكرها إِلَّا بإيزاعه، وأودع قلبه نور الْيَقِين فَإِنَّهُ مُسْتَقر لَا يودع فِيهِ إِلَّا مَا كَانَ مُسْتَندا إِلَى إيداعه".

ثم يتحدث القاضي الفاضل عن رحلته إلى مدينة الإسكندرية، وحرصه على دراسة علوم الحديث الشريف، وسماعه على أكابر العلماء، وذلك بإسلوب أدبي رائق بقوله: "وَلِلَّه فِي الله رحلتاه وَفِي سَبِيل الله يوماه وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أغر محجل وَالْحَمْد لله الَّذِي جعله ذَا يَوْمَيْنِ يَوْم يسفك دم المحابر تَحت قلمه وَيَوْم يسفك دم الْكَافِر تَحت علمه فَفِي الأول يطْلب حَدِيث الْمُصْطَفى صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَيجْعَل أَثَره عينا لَا تستر وَفِي الثَّانِي يَجْعَل لنصره شَرِيعَته هداه على الضلال فَيجْعَل عينه أثرا لَا يظْهر وَقد اسْتغْرب النَّاس همم الْعلمَاء فِي رحلتهم لنقل الحَدِيث وسماعه والموالاة فِي طلب ثقته وانتجاعه وصنفوا فِي ذَلِك تصانيف قصدُوا بهَا التحريض للهمم والتنبيه وَالرَّفْع من أقدار أَهله والتنويه فَقَالُوا رَحل فلَان لسَمَاع مُسْند فلَان وَسَار زيد إِلَى عَمْرو على بعد الْمَكَان".

ثم يتحدث القاضي الفاضل في رسالته عن انشغال السلطان بالعلم وحرصه على تحصيله حتى أنه جعله على حد قوله: "وَصَاحب الرحلة قد نصب نَفسه للْعلم وشغل بِهِ دهره ووقف عَلَيْهِ فكره فَلَا تتجاذب عنان همته الْكَبَائِر فَمَا القَوْل فِي ملك خواطره كأبوابه مطروقة وَأُمُور خلق الله كأمور دينه بِهِ معذوقة إِذْ هَاجر إِلَى بَقِيَّة الْخَيْر فِي أضيق أوقاته وَترك للْعلم أَشد ضروراته ووهب لَهُ أَيَّامًا، مَعَ أَنه فِي الْغُزَاة يُحَاسب لَهَا نَفسه على لحظاته وساعاته".

ويرى القاضي الفاضل في رسالته هذه أن السلطان صلاح الدين الأيوبي هو ثاني ملوك المسلمين الذين كانوا يذهبون إلى العلماء في طلب العلم، ويحضرون مجالسهم، وذلك بعد الخليفة العباسي هارون الرشيد، فيقول: "وَمَا يحْسب الْمَمْلُوك أَن كَاتب الْيَمين كتب لملك قطّ رحْلَة فِي طلب الْعلم إِلَّا للرشيد هَارُون رَحْمَة الله عَلَيْهِ على أَنه خلط زِيَارَة نبوية بِطَلَب ورحل بولديه إِلَى مَالك رَحْمَة الله عَلَيْهِ لسَمَاع هَذَا الْمُوَطَّأ الَّذِي

اتّفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرَّغْبَة في سَمَاعه والرحلة لانتجاعه، وَقد كَانَ الرشيد سَام مَالكًا رَحمَه الله أَن يَجْعَل لَهُ ولولديه الْأَمين والمأمون مَجْلِسا خَاصّا لإسماع مُصَنفه فَقَالَ لَهُ مَا مَعْنَاهُ إِنَّهَا سنة ابْن عمك صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَغَيْرك من سترهَا وَمثلك من نشرها. فَهَذِه رحْلَة ثَانِيَة فِي الزَّمَان وَأولى فِي الْإِيمَان يَكْتُبهَا الله للْمولى بقلم كَاتب الْيَمين، وَيقوم فِيهَا مقَام الرشيد وَيقوم عَلَيْهِ وعثمانه مقَام ولديه الْمَأْمُون والأمين، وَكَانَ أصل الْمُوَطَّأ بِسَمَاع الرشيد على مَالك رَحْمَة الله عَلَيْهِ فِي خزانَة الْكتب المصرية فَإِن كَانَ قد حصل بالخزانة الناصرية فَهُوَ بركَة عَظِيمَة ومنقبة كَرِيمَة وذخيرة قديمَة وَإِلَّا فليلتمس وَكَذَلِكَ خطّ مُوسَى بن جَعْفَر فِي فتيا الْمَأْمُون رحمهمَا الله كَانَ أَيْضا فِيهَا وَهُوَ مِمَّا يتبرك بِمثلِهِ وَيعلم بِهِ فضل الْعلم لَا خلا الْمولى أبقاه الله من فَضله وقف الْمَمْلُوك على مَا بشر بِهِ من صنع الْمولى وتوفيقه وَصِحَّة مزاجه فِي طَرِيقه وَانْقِطَاع مَا كَانَ من دم واسترواح الْقلب من كل هم وَقد استفتحت هَذِه الطَّرِيق بِكُل فأل مباركة الْبكر والفأل مأثورة عَن سيد الْبشر فَمن ذَلِك صِحَة جِسْمه فلتهنه الصِّحَّة وفسحة قلبه دَامَت لَهُ الفسحة وَانْقِطَاع الدَّم وَطَرِيقه إِلَى الشَّام يَنْقَطِع بهَا الدَّم ويتصل النَّصْر لَهُ وينتظم السّلم، وَأُخْرَى أَنه رَحل إِلَى الْمُوَطَّأ رحم الله مَالِكه ويرحل فِيمَا يطْلب من الشَّام إِلَى الْمُوَطَّأ أسعد الله بِهِ ممالكه الله تَعَالَى يُحَقّق الْخَيْر وَيصرف الضير ويبارك لمولانا فِي الْمقَام وَالسير إِن شَاءَ الله"[1].

ولاشك أن هذه الرسالة التي قارن فيها القاضي الفاضل بين سلوك السلطان الناصر صلاح الدين والخليفة العباسي هارون الرشيد، وقد استعار السيوطي هذه المقارنة في تعليقة على رحلة السلطان إلى الإسكندرية سنة ٥٧٢هـ بقوله: " ولم يعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ"[2] تعد وثيقة هامة، للتأكيد على حرص السلطان على حضور مجالس

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق١، ص٨٨- ٩١. وعن العلاقة بين الخليفة العباسي هارون الرشيد والإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، انظر: رياض مصطفى شاهين، ومحمد رضوان أبو شاهين: دراسة و تقديم وتحقيق رسالة الإمام مالك بن أنس إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، مجلة الجامعة الإسلامية بقطاع غزة، سلسلة الدراسات الشرعية، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، يونيو ٢٠٠٥م، ص٣٥٥- ٤٧٠.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٩؛ رجب عبد المنصف وآخرون: السلطان صلاح الدين، ص٦٢.

العلم ومجالسة العلماء في عصره، مثل حرصه على الجهاد في سبيل الله، وتعلقه به، فما كاد يصل إلى الإسكندرية حتى سارع في لهفة المحب إلى شيخه لينهل من علمه، ويستفيد من فضله، وقد كان الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عوف الزهرى السكندرى شيخ المالكيه (ت:٥٨١هـ/١١٨٤م) يتمتع بمكانة عالية عند السلطان صلاح الدين الذى حفظ له موقفه سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م، عندما حاصر الوزير الفاطمى شاور مدينة الإسكندرية، فامتنع هذا الشيخ هو وجماعة كبيرة من أنصار صلاح الدين بمنار الإسكندرية فحاصرهم شاور، فخاطبة ابن عوف قائلاً: "أعذرنا يا أمير الجيوش، وسامحنا بما فعلناه، فعفا عنهم" (١).

وعلى أية حال استمرت هذه الرحلة لمدة لاتقل عن إسبوعين، فيقول العماد الأصفهاني: "وعدنا من الْإِسْكَنْدَرِيَّة إِلَى الْقَاهِرَة فِي ذِي الْقعدَة وَشرع السُّلْطَان فِي الاستعداد لسفر الشَّام فَجمع العساكر وَالسِّلَاح واستصحب نصف الْعَسْكَر وَأبقى النّصْف الآخر لحفظ ثغور مصر ..." (٢).

ونتيجة لاصطحاب السلطان صلاح الدين لأولاده فى هذه الرحلات إلى الإسكندرية، فقد تعلق ابنه العزيز عثمان بهذه المدينة، فكانت أقرب إلى قلبه من أى مدينة أخرى، وحرص على زيارتها من آن لآخر(٣). وقد تناقلت المصادر التاريخية تلقي أبناء السلطان صلاح الدين العلم على هذا الشيخ الجليل، وخاصة العزيز عثمان والظاهر غازي، حيث يقول ابن خلكان: إن العزيز عثمان"سمع بالإسكندرية الحديث من الحافظ السلفي والفقيه أبي الطاهر ابن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد ابن بري النحوي وغيرهم"(٤)، وقد ورث العزيز عثمان حب مدينة الإسكندرية وأهلها عن أبيه، وقد تجلى ذلك عندما رفض ما بذله له ابن البيساني من أمولا جزيلة

(١) المقريزى: الخطط، ج١، ص١٧٥؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٠٠؛ عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص٢٠٠، ٢٣٤، ٢٣٧.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق١، ص٩٨.

(٣) عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها ، ص٢٤٠-٢٤٢.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ج٤، ط١، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، ج٣، ص٢٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٢٧؛ سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص١٢٩.

من أجل ولاية قضاء الثغر، على الرغم من احتياجه لهذه الأموال، وقال لمن حمل إليه المال: " أعد المال إلى أصحابه، وقل له: " إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا، وعرفه أني إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت أهل الإسكندرية، وهذا ما لا أفعله أبدا"(١).

أما الملك الظاهر غازي فقد كان"محبا للعلماء، مجيزا للفقراء"(٢) و"كَانَ يُكْرِمُ الْعُلَمَاءَ وَالشُّعَرَاءَ وَالْفُقَرَاءَ"(٣)، سمع بالإسكندرية من ابن عوف، وبمصر من ابن بري وبدمشق من الفضل البانياسي وحدث بحلب وولي سلطنتها ثلاثين سنة"(٤). وإن كنت لم أقف على مصدر معاصر يذكر أن السلطان صلاح الدين الأيوبي قد اصطحب ولده الظاهر غازي في إحدى رحلاته إلى مدينة الإسكندرية، إلا أنه من غير المستبعد أن يكون الظاهر غازي قد سمع على هذين العالمين الجليلين، خاصة وأنه سمع على جماعة من علماء مصر كما ورد في العديد من المصادر التاريخية؛ رغم اقامته الدائمة في بلاد الشام وولايته على حلب.

وقد حرص السلطان صلاح الدين، على مراسلة ابن عوف، والاستفادة بعلمه، واستفتائه في بعض المسائل الفقهية، فيذكر أن القاضي ابن أبي عصرون قد فقد بصره أثناء ولايته للقضاء، ولكنه كان حريصا على البقاء في منصبه رغم إصابته، فألف رسالة أيد فيها جواز أن يكون القاضي أعمى، وهو رأي يرفضه كثرة الفقهاء، بينما يؤيده القليل منهم، فلما بلغ ذلك السلطان صلاح الدين كتب إلى القاضي الفاضل قائلا:

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٣، ٨٤-٨٥؛ آمال رمضان عبد الحميد صديق: الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي، ص٢٩.

والبيساني ، هو عبد الكريم بن علي البيساني أخو القاضي الفاضل، كان واليا على إقليم البحيرة، وجمع مالا عظيما، ثم صرف من عمله وسكن الإسكندرية، وقد عرف بسوء التصرف، حتى مع زوجته. انظر تفاصيل ذلك : ابن الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٢) سبط ابن العجمي: كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج١، ط١، دار القلم، حلب، ١٤١٧هـ، ص١٠٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٥٢.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ٢١، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م، ص٢٩٦؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ط١، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، ص٢٥٨.

"إن القاضي قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبي طاهر بن عوف الإسكندراني، وتسأله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى"(١) .

إهتمام السلطان بعلماء الإسكندرية وطلاب العلم بها:

كان السلطان صلاح الدين الأيوبي يحمل للأسكندرية وأهلها مودة عظيمة، وحب كبير لقاء موقفهم الإيجابي معه عندما تعرض لحصار شديد من قبل الوزير الفاطمي شاور وحلفاؤه الصليبيين، فعندما أمره عمه أسد الدين شيركوه بالْمقَام بالإسكندرية "وَترك عِنْده جمَاعَة من الْعَسْكَر وَمن بِهِ مرض أَو جراح أَو ضعف واستحلف لَهُ وُجُوه الْإِسْكَنْدَرِيَّة وأوصاهم بِهِ، ورحل فِي أقوياء عسكره قَاصِدا إِلَى الصَّعِيد وَنزل الفرنج وشاور على الْإِسْكَنْدَرِيَّة وحاصروها مُدَّة ثَلَاثَة أشهر بأشد الْقِتَال وبذل أَهلهَا فِي نصْرَة الْملك النَّاصِر أَمْوَالهم وأنفسهم وَقتل مِنْهُم جمَاعَة عَظِيمَة"(٢).

ولاشك أن السلطان حفظ لأهل الإسكندرية ووجهائها هذا الجميل، فقد بذلوا الدماء والأموال ولم يبخلوا بأي ثمين أو غال في نصرة الحق، والوقوف إلى جانب صلاح الدين في الدفاع عن مدينتهم، حتى تم له ما أراد ورحل شاور والصليبيون عن المدينة بعد فض هذا الحصار، ولذلك كله حرص السلطان صلاح الدين كلما عاد إلى مصر على زيارة مدينة الإسكندرية، والاهتمام بمرافقها، ومنشآتها وحصونها، وعمارة اسطولها. بل كان حريصا على أهل العلم وذوي الفضل والصلاح بها. وكانت الإسكندرية في العصر الفاطمي، تحمل راية الدفاع عن أهل السنة والجماعة، جنبا إلى جنب مع مدينة الفسطاط، في مواجهة المذهب الرسمي للدولة الفاطمية التي كانت اسماعيلية عبدية شيعية، وكان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكي، وقد تقدم أن السلطان صلاح الدين الأيوبي، كان يتردد على ابن عوف وهو مالكي المذهب، بينما كان السلطان يعتنق المذهب الشافعي، ولعل السبب في شيوع المذهب المالكي في مدينة الإسكندرية، يرجع إلى انفتاحها على شمال إفريقيا والأندلس، وارتباطها بعلاقات واسعة مع علمائها، فقد تردد عليها عدد كبير من هؤلاء العلماء، ومنهم الفقيه المالكي أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الذي وفد إلى الإسكندرية

(١) الصفدي: نكت الهميان، ص١٨٤-١٨٥.

(٢) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص٨٦ والهامش(٢)؛ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج٣، طبعة دار الكتب المصرية، ص٤٦٣.

سنة٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م واستقر فيها، وقام بتدريس المذهب المالكي في إحدى مدارسها. وروى عنه جماعة من الحفاظ منهم: الحافظ أبو بكر بن العربي، وأبو علي الصدفي، وأبو الطاهر بن عوف وغيرهم. وله مؤلفات كثيرة منها "التعليقة في الخلافيات" في خمسة أسفار. وكان أوحد زمانه علماً وورعاً وزهداً لم يتشبث من الدنيا بشيء، إلى أن توفى، سنة ٥٢٥هـ/ ١٣٣١م وصلى عليه ابن عوف [١].

وفي سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م بنى الوزير الفاطمي رضوان ابن ولخشي مدرسة في الإسكندرية لتدريس المذهب المالكي، وقرر في تدريسها الفقيه الأشهر أبا الطاهر بن عوف[٢]. ولذلك اشتهرت هذه المدرسة باسم المدرسة العوفية نسبة إلى هذا الشيخ الجليل، على الرغم من أن اسمها الرسمي "المدرسة الحافظية" نسبة إلى الخليفة الحافظ الفاطمي، الذي كان يصدر الأوامر بتعيين المدرسين بها بناء على اقتراح من الوزير رضوان بن ولخشي[٣]. وبعد كل هذا التاريخ الحافل لابن عوف، فليس من المستغرب أن يتلهف السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى زيارته وأن ينال شرف مجالسته والتتلمذ على يديه.

وقد بالغ السلطان صلاح الدين فى اهتمامه بعلماء الإسكندرية، بل وطلاب العلم بها وخاصة الغرباء الوافدين إليها من المغرب والمشرق، ففى رحلة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م، ومنهم إليسع بن حزم أبو يحيى الغافقي الأندلسي، الذي سكن الإسكندرية

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق١، ص٩٨.

(٢) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكاتب العربي – القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٢٥-١٢٩؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ج٤، ط١، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م، ص٢٦٤- ٢٦٥؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٥، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١١٥-١١٦؛ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج٢، دار صادر- بيروت، ١٩٩٧، ص٨٨؛ أيمن فؤاد سيد أحمد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص١١٧.

(٣) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر، (انتقاه المقريزى)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى، للدراسات الشرقية، القاهرة، (د.ت)، ص١٣٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٥٨- ٤٥٩؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ، ج٣، القاهرة (١٣٩٣هـ /١٩٧٣م)، ص١٦٧.

وأقرأ بها، وأكرمه الناصر صلاح الدين الأيوبي، وقد اشتهر ابن حزم بأنه كان فقيها نسابة، وله تاريخ في المغرب سماه "المغرب"(١) أو "أخبار المغرب"(٢).

وقد أوقف "صادر الفرنج" على الفقهاء بها، ولعل المقصود بذلك الضريبة التى كانت تفرض على تجار الفرنج القادمين بالتجارة من بلادهم إلى ثغر الإسكندرية، وكان مقدارها زمن القلقشندى أى فى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، خمس قيمة البضائع التى يحملونها(٣). وفى رحلة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، أنشأ بالإسكندرية مارستاناً وداراً للمغاربة، ومدرسة على ضريح أخيه المعظم تورانشاه (ت: ٥٧٦هـ/١١٨٢م)(٤).

ومن الواضح أن هذه المجموعة المعمارية بنيت خصيصاً من أجل أهل العلم الذين سمع السلطان على بعضهم، وكذا طلاب العلم الوافدين وخاصة المغاربة، كما يتضح من رواية شاهد عيان هو الرحالة ابن جبير الذى زار مصر والإسكندرية فى عصر صلاح الدين الأيوبي وسجل وثيقة هامة جاء فيها: "ومن مناقب هذا البلد (أى الإسكندرية) مفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية، فيلتقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه، ومدرساً يعلمه الذى يريد تعلمه، وإجراء يقوم به فى جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٣٦.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص٦٣؛ ج٢٠، ص٢٣٧.

(٣) عن المدرسة الحافظية انظر: جمال الدين الشيال: أول أستاذ لأول مدرسة في الإسكندرية الإسلامية، ص٣– ٢٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، ص٢٤؛ أيمن فؤاد سيد أحمد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص١١٦– ١١٨.

(٤) المقريزى:السلوك، ج١، ق١، ص٩٩. كَانَ السُّلْطَان صلاح الدين قد أنفذ أَخَاهُ شمس الدولة إِلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّة وَجعل إِلَيْهِ ولايتها فَلَمَّا حصل بهَا لم توافقه وَكَانَ يعتاده القولنج فَمَات بِهِ ودفن بقصر الْإِسْكَنْدَرِيَّة، حتى تم نقله منه إلى دمشق، ولما وصل الْخَبَر بذلك إِلَى السُّلْطَان وَهُوَ نَازل بِظَاهِر حمص حزن عَلَيْهِ حزنا شَدِيدا وأكثر من إنشاد أَبْيَات المراثي. وقبر تورانشاه الْآن بالتربة الحسامية بالعوينة ظَاهر دمشق نقلته إِلَيْهَا أُخْته ستّ الشَّام بنت أَيُّوب وَبنت الْقبَّة عَلَيْهِ وعلى زَوجهَا نَاصِر الدّين مُحَمَّد بن شيركوه وَهُوَ ابْن عَمها. ومن هنا فإن هذه المجموعة المعمارية التي أقامها السلطان في مدينة الإسكندرية كانت في موضع ضريح توران شاه قبل نقله منه. أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق١، ص٦٤–٦٥.

إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم ليتكفلوا بمعالجتهم، ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم بالغاً ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أمينا من قبله. فقد ينتهى فى اليوم إلى ألفى خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة، وهكذا دائما، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك. وأكد على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شئ أن يرجعوا إلى صلب ماله" (١).

ومن خلال هذا النص الهام، يتضح أن السلطان كلف نائبه على المدينة بالاهتمام بالعلماء وطلاب العلم والوافدين من سائر الأقطار، وخاصة المغاربة والأندلسيين، فيوفر لكل وافدٍ منهم مسكنا ومدرسا حسب تخصصه، وحمامات لاستحمامهم، ووفر لهم العلاج بل أنشأ لهم مستشفى لعلاجهم، وخصص لهم خداما يسهرون على راحتهم، فما أسمى الهدف الذي يسعى من أجله، وهو توفير سبل الراحة والطمأنينة لطلاب العلم مع اختلاف تخصاصاتهم، فكان منهم دارسو الطب والأداب والعلوم الشرعية، بل نجد أنه عين لأبناء السبيل المارون عبر الإسكندرية لكل فرد خبزتين في اليوم، ولكي يتمكن من توفير هذه الإستحقاقات والإعطيات أوقف الأوقاف لهذا الغرض، واقتطع جزء من زكاة العين، حتى يفي بهذه المتطلبات، فإن لم تفِ هذه المصادر المالية بما تتطلبه حاجتهم، تبرع لهم من أمواله الخاصة.

العلوم التي دأب على دراستها:

وردت العديد من الإشارات بين المصادر التاريخية حول العلوم التي كان يتلقاها السلطان، وهي في مجملها مجموعة من العلوم الشرعية النقلية، فقد: "سمع الحَدِيث من الْحَافِظ أبي طَاهِر السِّلَفِي وَأبي طَاهِر بن عَوْف وَالشَّيْخ قطب الدّين النَّيْسَابُورِي وَعبد الله بن بري النَّحْوِيّ وَجَمَاعَة، روى عَنهُ يُونُس بن مُحَمَّد الفارقي والعماد الْكَاتب وَغَيرهمَا، وَكَانَ فَقِيها يُقَال إِنَّه كَانَ يحفظ الْقُرْآن والتنبيه فِي الْفِقْه والحماسة فِي الشّعْر"(٢).

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار ومكتبه الهلال، بيروت، ١٩٨١م، ص١٥.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين،

وكان حريصا على علوم القرآن الكريم، وقد اشتهر عنه كثرة سماعه وتلاوته، ومجالسة القراء والعلماء الذين يتصدون لتفسير آياته وشرحها، حتى أنه كان يستخير، إمامه، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه وكان يستقرئ من يحضره في الليل وهو في بُرجه، الُجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع وكان يستقريء – في مجلسه العام– من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقَّربه، وجعل له حظاً من خاصِّ طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جُزءاً من مزرعة، وكان – رحمه الله تعالى– رقيق القلب، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبُه، وتدمع عينه في معظم أوقاته[١].

أما الحديث النبوي الشريف فكان من أهم هذه العلوم التي داوم السلطان على دراستها على كبار الشيوخ والعلماء المعاصرين له، وقد سبقت الإشارة إلى أنه كان شديد الرغبة في سماع الحديث وكان يستحضر كل شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ويسمع عليه هو وكل من معه من أولاده ومماليكه، "وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له". ولسماع الحديث كما كان يتردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية لسماع الحديث وروى عنه أحاديث كثيرة[٢]. والمقصود بالحافظ الأصفهاني، الحافظ أبى طاهر السلفى وقد تقدم الحديث عنه، حيث حضر هو وولديه الفاضل على، والعزيز عثمان مجلسه وسمعوا الحديث الشريف عليه. كما داوم على حضور مجلس الشيخ أبى طاهر بن عوف وسمع عليه موطأ مالك بن أنس بروايته عن الطرطوشى[٣]. وكان السلطان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، وكان يستحضرُ في خلوته القاضي يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد (ت: ٦٣٢هـ) – صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة السلطان صلاح الدين– ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو،

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص ٩.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبى، ص٨.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق١، ص٨٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص١١٢.

فإذا مّر بحديث فيه عبرة رقَّ قلبه ودمعت عينه[١]. ولاشك أن السلطان كان يتصف برقة قلبه، وكان شديد البكاء عند سماعه أو تلاوته للقرآن الكريم، على نحو ما تقدم.

وإلى جانب سماع القرآن الكريم وتلاوته، ورواية الأحاديث النبوية الشريفة، كان له أيضا في مجال العلوم الشرعية إهتمام بـــ "المباحثة فى المسائل الفقهية، والمعانى الأدبية"[٢]، وكان لديه إطلاع واسع على الفقه الشافعي، حيث كان يحفظ كتاب التنبيه[٣]. "وتكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى المفيد"[٤]، وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب[٥].

---

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص ٩-١٠.

قاضي القضاة شيخ الإسلام الإمام العلامة الفقيه بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي الحلبي الشافعي، المعروف بابن شداد، ولد بالموصل سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، كان إماماً فاضلاً، ديناً محسناً للفقهاء وأهل العلم، اتصل بخدمة صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م، وحضر عنده وولاه قضاء العسكر وبيت المقدس، والنظر على أوقافه، كما فوض إليه تدريس المدرسة الصلاحية، وجعل النظر فيها وفي أوقافها إليه كان أول من ولي مشيخة المدرسة الصلاحية بأمر من الملك الناصر صلاح الدين. وبعد وفاة الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م ، رحل ابن شداد من القدس، وأقام بحلب حتى وفاته سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م. صنف ابن شداد مصنفات عدة من أهمها: "سيرة صلاح الدين" أسماه "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، "دلائل الأحكام"، "الموجز الباهر في الفقه"،"ملجأ الحكام". ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٢، ص٤٠٧؛ أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٢٥٧؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، جـ١٦، ص٣٠٧-٣٠٨؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٤، ق٢، ص٨٩؛ مجير الدين الحنبلي العليمي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمود الكعابنة، جـ٢، ط١، مكتبة دنيس، عمان، ١٩٩٩م ، ص١٧٧-١٧٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهبي في أخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١، جـ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ٢٦٦؛ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ص ٥٧٩ – ٧١٧.

(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين، ج١، ق١،ص٦٨٥.

(٣) هو كتاب "التنبيه، في فروع الشافعية" للشيخ، أبي إسحاق: إبراهيم بن علي الفقيه، الشيرازي، الشافعي. (ت: سنة ٤٧٦هـ)، وهو أحد الكتب الخمس المشهورة المتداولة، بين الشافعية، وأكثرها تداولا. كما صرح به النووي في (تهذيبه)، أخذه من تعليقه: الشيخ، أبي حامد، المروزي. بدأ في تصنيفه: في أوائل رمضان، سنة ٤٥٢هـ. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، ص٤٨٩.

(٤) العماد الأصفهانى: الفتح القسى، ص٦٥٦.

(٥) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص ٨؛ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق٢، ص٣٨٢.

السلطان صلاح الدين الأيوبي يدشن نهضة علمية جديدة:

لاشك أن حياة السلطان صلاح الدين الأيوبي كانت عامرة بكثرة رحلاته العلمية واهتمامه بأهل العلم والعلماء والقضاة والصلحاء، والأطباء، فقد قربهم جميعا في مجالسه، ورتبهم في المدارس والبيمارستانات وغيرها من المؤسسات التي كان لها أثرها على النهضة العلمية في عصره، ثم في عصر خلفائه من بعده. إذ نراه اهتمّ اهتمامًا بالغًا بالعلماء، والأطباء، وأقام عددًا من المستشفيات التي جلب لها الأطباء المتخصصين في شتى التخصصات، ومن أهم هذه المستشفيات البيمارستان الذي أمر ببنائه في القاهرة، وهو بناء ضخم متّسع، وضع عليه صلاح الدين مشرفين من ذوي العلم والدراية، ووضع لديهم خزائن الأدوية، وكان هذا المستشفى مزودا بأَسِرَّة كبيرة ومجهزا لاستقبال المرضى(١).

ومما يُؤثَر عن صلاح الدين أنه كان يحب العلم، ويشجع العلماء، ولا يضن بمال أو جهد في سبيل إنعاش الحركة العلمية في البلاد، فأنشأ كثيرًا من المدارس، وقرّب العلماء والكتاب والراسخين في العلم وفنون الثقافة المختلفة منه.

ولاشك أن هذه المدارس جعلت من عهد صلاح الدين عهداً مشرقاً سواء في مصر أو بلاد الشام، إذ أصبحتا محورا لاستقطاب العلماء من جميع البلدان الإسلامية، لما كان يلاقيه الفقهاء من كريم العناية والرعاية، ولما كان يغدقه صلاح الدين عليهم من أُعطيات ومنح كثيرة، فقد بلغت المرتبات للفقهاء والمدرسين بدمشق في عهده حوالي ثلاثمائة ألف دينار، وكان عددهم حوالي ستمائة مدرس وفقيه(٢). فقد كان يوقف عليها أوقافاً تكفي للإنفاق على الفقهاء والعلماء وطلاب العلم(٣) كما هُيئت لهذه المدارس كل أسباب الراحة ووسائل العيش، ليتفرغ الدارسون والمدرسون تفرغاً كاملاً للعلم.

وقد هدف صلاح الدين من إنشاء المدارس التي شيّدها إلى مقاومة المذهب الشيعي، عن طريق تعليم فقه أهل السنة. ولاسيما مذهبه الذي كان يعتقده وهو المذهب الشافعي، وكذلك المذهب المالكي الذي كان سائدا في بلاد المغرب وانتشر في الإسكندية

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٣٣؛ السلوك، ج١ق١، ص ١٨٧؛

(٢) نعمان الطيب سليمان، منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، ط١، مطبعة الحسين الإسلامية. القاهرة، ١٩٩١،ص٤٢٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٥٤.

ومصر، فلا غرابة أم نرى السلطان صلاح الدين يحرص على زيارة العلماء السكندريين سواء أكانوا من فقهاء الشافعية أو من الفقهاء المالكية، كما شيد مدرستين للشافعية ومدرستين أخريين إحداهما مالكية، والأخرى حنفية، وهذا يدل على أنه أراد أن ينتصر لأهل السنة بغض النظر عن المذهب الفقهي، وحتى يضمن تأييد المالكية والحنفية[1] وعلمائهم له إلى جانب الشافعية، وذلك على الرغم من أن المقريزي يؤكد أن المذهبين السائدين في مصر على عهد صلاح الدين كانا الشافعي والمالكي "ولم يكن في الدولة الأيوبية بمصر كثير ذكر لمذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، ثم اشتهر مذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل في آخرها"[2].وكان لاهتمام السلطان صلاح الدين بهذه المدارس أن أصبحت مراكزا لتثقيف الناس وتعليمهم لغتهم وأمور دينهم، وتبصيرهم بما يُحيق بهم من مخاطر تهدد وجودهم، فعملت على إثارة روح الجهاد في

(١) بنى صلاح الدين الأيوبي في مصر أربع مدارس هي: المدرسة الناصرية: بناها صلاح الدين في مصر (الفسطاط) سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م مكان سجن المعونة، وكان في ذلك الوقت وزيراً، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي. أبو شامة، الروضتين ج١، ق١، ص ٤٨٦. المدرسة القمحية: بناها صلاح الدين في أثناء وزارته، وجعل الدراسة فيها على المذهب المالكي. المقريزي، الخطط ج٢، ص ٣٦٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٣٨٥.المدرسة الصلاحية: أنشأها صلاح الدين بعد أن انفرد بحكم مصر، بجوار قبر الشافعي بالقرافة، وجعل التدريس فيها على المذهب الشافعي، وأول من درس بها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشاني (ت:٥٨٧هـ/ ١١٩١م). أبو شامة، الروضتين. ج١، ق٢، ص ٦٨٨. وجعل له في كل شهر أربعين ديناراً عن التدريس. وعشرة دنانير عن النظر في أوقاف المدرسة، ورتّب له من الخبز في كل يوم ووقف ستين رطلاً، ورواتين من ماء النيل. ووقف عليها حمّاما بجوارها. وحوانيت بظاهرها وجعل فيها معيدين. المقريزي: الخطط، ج٢، ص٤٠٠.المدرسة السيفية: أسسها صلاح الدين بعد أن أصبح ملكاً لمصر، جعل التدريس فيها على المذهب الحنفي، وعيّن للتدريس فيها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجيني. ورتّب له في كل شهر أحد عشر ديناراً. وباقي ريع وقفها. يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده. على قدر طبقاتهم. المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٦٥. هذا بالإضافة إلى المدرسة التي بناها في مدينة الإسكندرية والتي أشار إليها الرحالة ابن جبير على نحو ما تقدم.وذكرها المقريزي أيضا، بقوله: "ثم خرج إلى الإسكندرية وسمع بها موطأ الإمام مالك على الفقيه أبي طاهر بن عوف وأنشأ بها مارستانا ودار للمغاربة، ومدرسة". الخطط، ج٢، ص٢٣٤. ومن هذا النص نرجح أن تكون هذه المدرسة كانت مختصة بتدريس المذهب المالكي، حيث أقيمت في وجود ابن عوف وهو فقيه مالكي، وبجوارها دار للمغاربة ومن المعروف أن المذهب المالكي كان منتشرا في شمال إفريقيا.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٦٥.

الناس، مما جعلهم يلتفّون من حوله، داعمين له مما مكنه من تحقيق انتصارات باهرة على الصليبيين.

وكان نظام الكتاتيب موجودًا في عهد صلاح الدين، فكان الصبي إذا شَبِّ عن الطوق التحق بهذه الكتاتيب ليتعلّم القرآن، ويحفظ طرفًا من الحديث، ثم أصول الحساب، واللغة، وهكذا حتى يبرع في علم من العلوم، وإذا شبِّ الغلام وترعرع وأراد أن يستزيد من العلم رحل إلى مواطن العلم في مصر والشام وبغداد ومكة، ليتقن علوم دينه وحياته. وقد بلغ من اهتمام السلطان بتنشئة جيل من الأطفال يكون نواةً لنهضة علمية كبيرة فيما بعد، أنه كان يكافيء النابغين منهم، وكان لشدة حرصه على على العقيدة التي جمعها له الشيخ قطب الدين النيسابوري، أنه يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر، وقد رآه القاضي ابن شداد وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه"[(١)]. وقد مر السلطان يوما على صبي وهو يقرأ القرآن على أبيه، فاستحسن قراءته، فقربه وجعل له حظا من خاص طعامه، وأوقف عليه وعلى والده جزءمن مزرعة[(٢)].

وبعد فهذا جانب مشرق من حياة الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، الذى قضى معظمها مجاهداً فى ساحات القتال، مكرساً جهوده لصد العدوان الصليبى على الممتلكات والأعراض الإسلامية، فقد خصص شطرا من حياته لإشباع النفس والروح والوجدان من بحور العلم ومناهله الأصيلة على أيدى كبار علماء المسلمين آنذاك. وساهم في تدشين نهضة علمية مع بداية عصر جديد في مصر وبلاد الشام، تقوم أساسا على محاربة أهل البدع والخرافات، ومجابهة المذهب الإسماعيلي العبدي الذي اعتنقه الفاطميون، ويناصر أهل السنة والجماعة على مذهبي الإمامين مالك والشافعي، كما فتح بابا لفقهاء الحنفية للظهور إلى جانب المذهبين السابقين، لتعم الفائدة وتتسع دائرة الفقه والإفتاء.

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص ٨؛ أبو شامة: كتاب الروضتين، ج٢، ق٢، ص٣٨٢.

(٢) ابن شداد: سيرة صلاح الدين الأيوبي، ص٩.

الملحق

نص رسالة القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بمناسبة زيارته لمدينة الإسكندرية ولقائه بالحافظ الفقيه المالكي الإمام أبي طاهر بن عوف وسماعه عليه كتاب الموطأ[1].

فِيهِ أدام الله دولة الْمولى الْملك النَّاصِر صَلَاح الدُّنْيَا وَالدّين سُلْطَان الْإِسْلَام وَالْمُسْلمين محيي دولة أَمِير الْمُؤمنِينَ وأسعده برحلته للْعلم وأثابه عَلَيْهَا وأوصل ذخائر الْخَيْر إِلَيْهِ وأوصله إِلَيْهَا وأوزع الْخلق شكرا لنعمته فِيهِ فَإِنَّهَا نعْمَة لَا يُوصل إِلَى شكرها إِلَّا بإيزاعه وأودع قلبه نور الْيَقِين فَإِنَّهُ مُسْتَقر لَا يودع فِيهِ إِلَّا مَا كَانَ مُسْتَندا إِلَى إيداعه وَللَّه فِي الله رحلتاه وَفِي سَبِيل الله يوماه وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أغر محجل وَالْحَمْد لله الَّذِي جعله ذَا يَوْمَيْنِ يَوْم يسفك دم المحابر تَحت قلمه وَيَوْم يسفك دم الْكَافِر تَحت علمه فَفِي الأول يطْلب حَدِيث الْمُصْطَفى صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فَيجْعَل أَثَره عينا لَا تستر وَفِي الثَّانِي يَجْعَل لنصره شَرِيعَته هداه على الضلال فَيجْعَل عينه أثرا لَا يظْهر وَقد اسْتغْرب النَّاس همم الْعلمَاء فِي رحلتهم لنقل الحَدِيث وسماعه والموالاة فِي طلب ثقته وانتجاعه وصنفوا فِي ذَلِك تصانيف قصدُوا بهَا التحريض للهمم والتنبيه وَالرَّفْع من أقدار أَهله والتنويه فَقَالُوا رَحل فلَان لسَمَاع مُسْند فلَان وَسَار زيد إِلَى عَمْرو على بعد الْمَكَان هَذَا وَصَاحب الرحلة قد نصب نَفسه للْعلم وشغل بِهِ دهره ووقف عَلَيْهِ فكره فَلَا تتجاذب عنان همته الْكَبَائِر فَمَا القَوْل فِي ملك خواطره كأبوابه مطروقة وَأُمُور خلق الله كأمور دينه بِهِ معذوقة إِذْ هَاجر إِلَى بَقِيَّة الْخَيْر فِي أضيق أوقاته وَترك للْعلم أَشد ضروراته ووهب لَهُ أَيَّامًا مَعَ أَنه فِي الْغُزَاة يُحَاسب لَهَا نَفسه على لحظاته وساعاته وَمَا يحْسب الْمَمْلُوك أَن كَاتب الْيَمين كتب لملك قطّ رحْلَة فِي طلب الْعلم إِلَّا للرشيد هَارُون رَحْمَة الله عَلَيْهِ على أَنه خلط زِيَارَة نبوية بِطَلَب ورحل بولديه إِلَى مَالك رَحْمَة الله عَلَيْهِ لسَمَاع هَذَا الْمُوَطَّأ الَّذِي اتّفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرَّغْبَة فِي سَمَاعه والرحلة لانتجاعه

وَقد كَانَ الرشيد سَام مَالِكًا رَحمَه الله أَن يَجْعَل لَهُ ولولديه الْأمين والمأمون مَجْلِسا خَاصّا لإسماع مُصَنفه فَقَالَ لَهُ مَا مَعْنَاهُ إِنَّهَا سنة ابْن عمك صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَغَيْرك من سترهَا وَمثلك من نشرها.

([1]) نقلا عن: أبوشامة: كتاب الروضتين، ج٢، ص٨٩-٩٢.

فَهَذِه رحْلَة ثَانِيَة فِي الزَّمَان وَأولى فِي الْإِيمَان يَكْتُبهَا الله للْمولى بقلم كَاتب الْيَمين وَيقوم فِيهَا مقَام الرشيد وَيقوم عَلَيْهِ وعثمانه مقَام ولديه الْمَأْمُون والأمين

وَكَانَ أصل الْمُوَطَّأ بِسَمَاع الرشيد على مَالك رَحْمَة الله عَلَيْهِ فِي خزانَة الْكتب المصرية فَإِن كَانَ قد حصل بالخزانة الناصرية فَهُوَ بركَة عَظِيمَة ومنقبة كَرِيمَة وذخيرة قديمَة وَإِلَّا فليلتمس وَكَذَلِكَ خطّ مُوسَى بن جَعْفَر فِي فتيا الْمَأْمُون رحمهمَا الله كَانَ أَيْضا فِيهَا وَهُوَ مِمَّا يتبرك بِمثْلِهِ وَيعلم بِهِ فضل الْعلم لَا خلا الْمولى أبقاه الله من فَضله

وقف الْمَمْلُوك على مَا بشر بِهِ من صنع الْمولى وتوفيقه وَصِحَّة مزاجه فِي طَرِيقه وَانْقِطَاع مَا كَانَ من دم واسترواح الْقلب من كل هم وَقد استفتحت هَذِه الطَّرِيق بِكُل فأل مباركة الْبكر والفأل مأثورة عَن سيد الْبشر فَمن ذَلِك صِحَة جِسْمه فلتهنه الصِّحَّة وفسحة قلبه دَامَت لَهُ الفسحة وَانْقِطَاع الدَّم وَطَرِيقه إِلَى الشَّام يَنْقَطِع بهَا الدَّم ويتصل النَّصْر لَهُ وينتظم السّلم وَأُخْرَى أَنه رَحل إِلَى الْمُوَطَّأ رحم الله مَالِكه ويرحل فِيمَا يطْلب من الشَّام إِلَى الْمُوَطَّأ أسعد الله بِهِ ممالكه الله تَعَالَى يُحَقّق الْخَيْر وَيصرف الضير ويبارك لمولانا فِي الْمقَام وَالسير إِن شَاءَ الله.

المصادر والمراجع

المصادر:

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبو الكرم محمد الشيباني الجزري (ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م).

– الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧م.

ابن تغرى بردى: أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (ت: ٨٧٤هـ/١٤٦٥م).

– النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج ٦، تحقيق محمد بك رمزى، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٦م.

ابن جبير: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير (ت: ٦١٤هـ/١٢١٧م).

– كتاب رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، المعروف بـ: رحلة ابن جبير، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

ابن خلكان:أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر (ت:٦٨١هـ/ ١٣٨٢م).

– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء في ٤ مجلدات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م.

ابن شداد: القاضي بهاء الدين بن شداد (ت: ٦٣٢هـ/١٢٣٥م).

– سيرة صلاح الدين الأيوبي، المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٨٨م.

ابن العماد الحنبلي:

– شذرات الذهبي في أخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط١، جـ ٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

ابن العبري: أبو الفرج جمال الدين جريجوريوس بن هارون الطبيب الملطي(٥٨٥هـ / ١٢٨٦م)

– تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحق الرملة، وقدم له الأب جان موريس فيبيه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل من عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

– البداية والنهاية، ج١٢، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح، القاهرة، ١٩٩٨م.

ابن ميسر: تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب بن راغب (ت: ٦٧٧هـ/١٢٧٨م).

– المنتقى من أخبار مصر، (انتقاه المقريزى)، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى، للدراسات الشرقية، القاهرة، (د.ت).

– ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم، الشافعى: (ت: ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)

– مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، خمسة أجزاء، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطابع دار القلم، القاهرة، (١٩٥٤م).

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن عثمان المقدسى: (ت: ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م).

– كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م.

الحنبلى: أحمد بن إبراهيم (ق ٧ هـ / ١٣م).

– شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، تحقيق مديحة الشرقاوى ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، ١٩٩٦م.

الذهبي: الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت: ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).

سير أعلام النبلاء، جـ٢١، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٧م.

السبكي: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب (ت: ٧٧١هـ /١٣٦٩م).

– طبقات الشافعية الكبرى، ج٦، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، ط٢، القاهرة ١٤١٣هـ.

سبط ابن العجمي: إبراهيم بن محمد بن خليل برهان الدين، أبوالوفاء الطرابلسي (ت: ٨٤١هـ/ ١٤٣٨م)

– كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج١، ط١، دار القلم، حلب، ١٤١٧هـ.

السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر بن حمد الشافعى. (ت: ٩١١هـ /١٥٠٥م).
– حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، ج١، تحقيق خليل منصور، بيروت، ١٩٩٧م.
الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت: ٧٦٤هـ)
– الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.
– نكت الهميان في نكت العميان، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠٠٧م
الضبي: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي (ت: ٥٩٩هـ)
– بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكاتب العربي – القاهرة، ١٩٦٧م.
العماد الأصفهانى: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الكاتب (ت: ٥٩٧هـ/ ١٢٠١).
– الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ، ٢٠٠٣م.
القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على القلقشتندى (٨٢١هـ /١٤١٨م).
– صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج٣، طبعة دار الكتب المصرية.
مجير الدين الحنبلي: قاضى القضاة أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين العليمي (ت: ٩٢٧هـ/١٥٢١م).
– الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق محمود الكعابنة، جـ٢، ط١، مكتبة دنيس، عمان، ١٩٩٩م .
المقرى: أحمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن التلمسانى (ت: ١٠٤١هـ/١٦٣١م).
– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج٢، دار صادر– بيروت، ١٩٩٧م.
المقريزى: تقى الدين أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر (ت: ٨٤٥هـ /١٤٤١م).
– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ت).
– السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١ تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة (د. ت).
النعيمي: عبد القادر محمد النعيمي الدمشقى (ت: ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م).
– الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ط١، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.

المراجع:

آمال رمضان عبد الحميد صديق:

– الحياة العلمية في الإسكندرية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

أحمد مختار العبادي (دكتور):

– البحرية المصرية زمن الأيوبيين والمماليك، بجث في كتاب (تاريخ البحرية المصرية) اصدارات جامعة الإسكندرية، ١٩٧٣م

أيمن فؤاد سيد أحمد(دكتور):

– المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث في كتاب المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢

جمال الدين الشيال(دكتور):

– أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية، ع ١١، ١٩٥٧م

حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله، كاتب جلبي (ت: ١٦٥٧م)

– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

رجب عبد المنصف وآخرون:

– السلطان صلاح الدين، لمحات من حياته وصور من مآثره، سلسلة أعلام الإسلام، عدد ٥، ربيع الآخر ١٤٢٥هـ/ يونية ٢٠٠٤م.

رياض مصطفى شاهين(دكتور):، ومحمد رضوان أبو شاهين:

– دراسة و تقديم وتحقيق رسالة الإمام مالك بن أنس إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، مجلة الجامعة الإسلامية بقطاع غزة، سلسلة الدراسات الشرعية، المجلد الثالث عشر، العدد الثاني، يونيو ٢٠٠٥م

سعيد عبد الفتاح عاشور(دكتور):

– الناصر صلاح الدين، القاهرة، ١٩٦٥م.

– مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية،، بيروت، (د.ت).

– العلم بين المسجد والمدرسة، بحث في كتاب المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٢م.

عبد العزيز سالم(دكتور):

– تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

عفاف سيد محمد صبرة(دكتورة):

– المدارس في العصر الأيوبي، بحث في كتاب المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٩٢م.

فايد عاشور(دكتور):

– الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٣م.

نعمان الطيب سليمان(دكتور):

– منهج صلاح الدين الأيوبي في الحكم والقيادة، ط١، مطبعة الحسين الإسلامية. القاهرة، ١٩٩١.